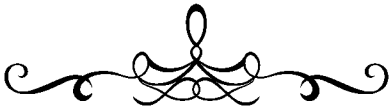

"شاهيــن بك" والدفاع المجيد عن "عنتب"

بعد نضالِ الجيشِ العثمانيّ ومقاومتِه الدُّوَل العظمى طوال أربعة أعوام في الحرب العالميّة الأولى، وبعد ضربه أروع الأمثلةِ في البطولات، أظهر للعالم قدراته الفائقة الخارقة، إلا أنّه لم يستطع الثبات بسبب انسحاب حلفائه من الحرب، وفي الثلاثين من أكتوبر/تشرين الثاني عام (١٩١٨م) اضطرت الدولة إلى توقيع معاهدة وقف إطلاق النار مع دول الحلفاء في ميناء "مندروس" بجزيرة "ليمني"، لكنّ تلك المعاهدة التي أنهت الحرب كانت تحمل شروطًا مجحِفة جدًّا، كأنّها تستهدف تقويضَ الدولة العثمانيّة لا سيّما المادّة السابعة المقرّة بحقّ احتلال دول التحالف لكلّ ركن من أركان الدولة العثمانيّة في حالة ظهور ما يهدِّدُ أمنَ جيوشها.

بدأت الدول المنتصرة في غزوِ أراضي الدولة العثمانية مفسّرين فقرات الاتفاقيّة كما يحلو لهم طبقًا لمصالحهم الخاصّة.

دعم الإنجليز لواء الفرسان -الذي فصلوه عن فرقة الفرسان الخامسة- بوَحدات عسكريّة محمّلة بالمدافع والأسلحة الثقيلة حيثُ أرسلوه إلى الشمال، واحتلوا مدينة "كِلِسْ" في الثالث من يناير/كانون الثاني عام (١٩١٩م)، و"عنتب" في الخامس عشر من يناير/كانون الثاني عام (١٩١٩م)، ثم اتّفقوا مع الفرنسيّين على انسحابهم تاركين لهم مرعش وأورفا وعنتب وكِلّس بدءًا من الخامس من نوفمبر/شباط عام (١٩١٩م) شريطة بقاء "الموصل" وما حولها في حوزتهم، وأسّس الفرنسيّون هناك وَحدات عسكريّةٍ تطوّعيّة من المسيحيّين المحلّيّين مثلما فعلوا في منطقة "أضنه"، وجلبوا أيضًا كتيبةً أرمنيّةً معهم.

بعد مدّةٍ قصيرةٍ بدأ العدوّ يكشِفُ عن وجهه الحقيقيّ بمساعدة الأقلّيّات؛ فصادرَ الأسلحة من الأهالي، وأتلف المحاصيل بغارات شنّها على القرى، وانتشرت أخبار عن التحرش بالنساء، كانت هذه الضغوط المتزايدة كلّها تستهدف إصابة الناس باليأس، كما أنّ نهب قرية "بيوك عربتان"، وإنزال العَلَم التركيّ عن مركز شرطة "آقيول" عَنوة أثار ثائرة أهالي "عنتب".

الفرنسيّون الحائرون

شرع الأهالي في "عنتب" بالمقاومة غير المسلحة، إذ امتنع القرَويّون عن بيع العدوّ الغلالَ والخشب اللازم لإقامة الوسائل الدفاعيّة ونحوها من الضروريّات الإستراتيجيّة؛ فاضطرّ الفرنسيّون -المدركون أنّهم لن يتمكّنوا من توفير المؤن من عنتب- إلى جلب الغذاء وما شابه من

المناطق الأخرى؛ وكان لا بد من جلب المؤن اللازمة والذخيرة من الحامية العسكريّة بـ"كلّس" وكتيبة القيادة الفرنسية لدعم القوّات المتمركزة في عنتب، ولذا كان طريق عنتب كلّس يحمل أهمّيّة كبيرةً لوصول تلك المساعدات بشكلٍ آمن.

ذات يوم تجمّع الفدائيّون من القرى المجاورة، وحاصروا العدوّ في بحيرة تسمى "جتلمازي (*Catalmazı*)"، وتكبّدَ الفرنسيّون الحائرون الذين لم يتوقّعوا مثل هذا الهجوم خسائرَ فادحةً عندما تأخّروا في الردّ.

لقد بدأت المقاومة بالفعل، حيث باتت القذائفُ تدوّي يوميًّا عند ملتقى الطُّرُق وفي الضواحي في المدينة.

شاهين بك

في البداية تولى "مِصرْزَادَه نوري بك" حماية طريق كلّس عنتب، وفي تلك الأثناء كان الفرنسيّون يتحرّكون بحريّة على ذلك الطريق، ويأتون بتعزيزاتٍ عن طريق -"قاتما (*Katma*)" ثمّ "كلّس" ثمّ "عنتب"- لتقوية مراكزهم بـ"عنتب".

في ذلك الأوان جاء "شاهين بك" إلى "عنتب"، واسمه الأصليّ "محمد سعيد"، وسيطلق عليه الناس فيما بعد "شاهين بك"، وكان أهالي عنتب يطلقون عليه باللهجة المحليّة "شاهان بك".

ولد "شاهين بك" عام (١٨٧٧م) في حيّ "بستانجي" بـ"غازي عنتب"، وفي عام (١٨٩٩م) ذهب إلى اليمن بصفته جنديًّا عثمانيًّا، ومُنح رتبة رقيب أوّل لنجاحٍ أظهره في جبهة اليمن، وشارك في حرب طرابلس الغرب

متطوّعًا عام (١٩١١م)، وفي حرب البلقان حارب في جبهة "جاتلجه"، وفي بدايات الحرب العالميّة الأولى حارب في الفيلق الخامس عشر في "غاليجه"، ثمّ في جبهتي "جناق قلعه" و"فلسطين" على التوالي.

كما قاتل ذلك البطل المقدام أيضًا الإنجليز في جبهة "سيناء" في أكتوبر/تشرين الأول عام (١٩١٧م): وبفضل وطنيّته وسموّ أخلاقه وبسالته وبطولته تمّت ترقيته إلى رتبة ملازم، ووقع "محمّد سعيد" في أسر الإنجليز في أثناء معركة ضارية عام (١٩١٨م)، وتمّ إرساله إلى مخيم الأسرى في "سيدي بشر" بـ"مصر".

في سبيل الراية

بعد وقف إطلاق النار، أطلق الإنجليز سراح "شاهين بك" في ديسمبر/كانون الأول عام (١٩١٩م)، فذهب إلى إسطنبول في الثالث عشر من ديسمبر/كانون الأول من العام نفسه، فتقدم بطلب إلى "جمال باشا" وزير الحربيّة في حكومة "عليّ رضا باشا" للحصول على وظيفة؛ فقام الباشا بتعيينه برئاسة الشعبة العسكريّة بمركز "بيرجك" بمدينة "أورفا"؛ وبناء على ذلك استطاع أن يزور "عنتب" مسقط رأسه.

عندما رأى "شاهين بك" عنتب وهي محتلّةٌ اندهش كثيرًا وساوره حزنٌ عميقٌ وألمٌ مرير، رغم أنّه حارب لسنواتٍ طوال في سبيل المقاومة والاستقلال، فما استطاع أن يمكث بمنزله إلا يومًا واحدًا فقط، ولم يستمع لتوسّلات كبار العشيرة مثل:

- استرح يا ولدي بضعة أيام، حتى تتخلّص من حزنك.

فأجاب قائلًا:

– كلا، لا أستطيع أن أبقى، انظروا، أَنْزَلَ الأعداءُ رايتنا وأنا قاتلتُ أعوامًا في سبيلها.

مقاومة عنتب

عندما رأى "شاهين بك" "عنتب" وهي محتلّة من قِبل الأعداء، تخلّى عن وظيفته بـ"بيرجك" وقرّر المكوث فيها، وبعد أن ودّع زوجته وعانقَ ابنَه تقدّم بطلب وظيفة إلى جمعيّة حقوق الدفاع عن عنتب، فأعطته الجمعيّة مهمّة مراقبة طريق "كلّس–عنتب"، لم يتردّد شاهين بك ولو لحظةً واحدةً، وبدأ يزاول مهامه في الحال، شاعرًا بسموّ المهمّة المسندة إليه وبمسؤوليّته الثقيلة.

في مطلع عام (١٩٢٠م) أخذ يحدّث الناس وهو يجول قرى عنتب قريةً تلوَ الأخرى عن عواقب الاحتلال المريرة، وعن حبّ الوطن والأمة، وأهميّة الجهاد وفضيلته، وخلال وقتٍ قصيرٍ جمعَ مجموعةً فدائيّةً يراوح عددهم من خمسين ومائة شخص إلى مائتين، واتّخذ من قرية "أُولُومَاسَرَا" مقرًّا له، وبعد أن شيّد القلاع في "قِيزِلْ بُورُون" و"الومسرة" و"كرتيل" على طريق "عنتب–كلِّس" أخذ يشنُّ غارات على القوّات الفرنسية التي تمرُّ من هذه المناطق واستطاع بذلك قطعَ الطريق أمام المؤن والذخيرة التي تجلب من "كلِّس" إلى "عنتب".

ومن مقالاته الشهيرة:

> ”إن طريق كلّس عنتب يُعتبر نقطةً حاسمةً بالنسبة للمقاومة، وعلينا أن نفعل كلّ ما في وسعنا كي نمنع وصول المساعدات إلى وحدات الاحتلال الفرنسيّ بعنتب عبر هذا الطريق“.

حظي "شاهين بك" بحبّ الناس في غضون مدّة قصيرة، حتى إنّه لو ذهب لأيّة قرية لطلب الدعم، لاستُقبل بحفاوةٍ، ولأمدّه القرويّون بما يريده من مالٍ وطعامٍ.

وفي يوم الثالث من فبراير/شباط عام (١٩٢٠م)، قدمت من "كلّس" إلى "عنتب" فرقة مؤن فرنسيّة قوامُها خمسون ومائة عربة تقوم بحمايتها سريّتان، وفي الطريق وقعت هذه الفرقة في الكمين الذي نصبه "شاهين بك" واضطرّت للعودة، وفي اليوم التالي قُطع اتّصال الفرنسيّين مع كلّس بتدمير خطوطِ التلغراف على طريق كلِّس، كانت تلك الجهود ترفع من معنويّات الأهالي، وكان أهالي عنتب يسعون لتنظيمِ المقاومة بالمدينة على نحوٍ مكثّف، ويعملون على مدّ "شاهين بك" بالمؤن والذخيرة.

حاول الفرنسيّون العبور مرّة أخرى من الطريق نفسه يوم الثامن عشر من فبراير/شباط، إلا أنّ مقاتلي شاهين بك نجحوا في تشتيت تلك الكتيبة أيضًا، وكانت محصّنةً بمدفعين ورشّاشات كثيرة جدًّا، إلا أن العدوّ اضطرّ للتراجع إلى كلّس مرّةً أخرى أمام هجمات المقاتلين،حتى استطاع أن يُرعب القوات الفرنسيّة ويتركها في حالة يُرثى لها في مواجهة مجموعةٍ صغيرةٍ من الأبطال، وعندما علِم القائد الفرنسي بـ"كلّس" ما حال بجنوده تضجّر كثيرًا، وألقى قبّعَتَهُ، وأمر بالقبض على القائد الذي فضّل الانسحاب على القتال.

كان "شاهين بك" يقول في رسالة بعثَ بها إلى قائدِ العدوّ في أعقاب ذلك النصر:

"دم الشهيد في كلّ ذَرّة من تراب أراضٍ وطأتْها أقدامكم القذرة، وملاقاة الموت في سبيل الدين والشرف والحريّة لنا أحلى من الشراب البارد في حرّ أغسطس/آب، فارحلوا عن أراضينا فورًا، وإلا فستُزهَق أرواحكم بلا رحمة".

وكان شاهين بك يرفع معنويّات أهل عنتب الشجعان بقوله:

- لا تقلقوا، واطمئنّوا، لن يستطيع العدوّ دخول عنتب إلا على جثتي.

بطلٌ في الحادية عشرة

لقد ضاق ذرعًا قائد قوات الاحتلال بـ"عنتب"، وكان يتّصل دائمًا بالتومن[١٤٥] الفرنسيّ بـ"قاتما"، ويطلُب مؤنًا وذخيرةً باستمرار، علاوةً على أنّ الوصول إلى عنتب تحوّل عندهم إلى مسألةِ كرامة، فقدمت قوات الاحتلال -الراغبة في الوصول إلى عنتب مهما كلف الأمر- بفرقةٍ عسكريّةٍ حاشدةٍ في الخامس والعشرين من مارس/آذار، يقودها المقدّم "أندريا" من كلِّس، وتضمّ ثلاث فرق من المشاة، وسريّتين من الخيّالة، وقام العدوّ بتعزيز سريّة المدفعيّة بستّة عشر رشّاشًا، وأسلحةٍ آليّةٍ متعدّدةٍ، أما قوات "شاهين بك"، فلم يتجاوز عددهم المائتين رغم مَدَدٍ قدَّمَتْه جماعة كلّس الوطنيّة، ومع ذلك فإنّ "خيري" بن "شاهين بك" البالغ من العمر أحد عشر عامًا كان ضمن المتطوّعين منذ بداية الاشتباكات، وشارك في كلّ معركة.

وقد وقعت أولى المواجهات بين الطرفين في السادس والعشرين من مارس في تلال "قيزل برون" وأما المواجهة الثانية فكانت في اليوم التالي

(١٤٥) التومن: فرقة مكونة من عشرة آلاف جندي.

بالقرب من "كرتيل"، وقد اضطرّ المقاتلون إلى الإنسحاب بعد تعرُّض مواقعهم في التلال لقصفٍ عنيفٍ من قِبل مدافعِ ورشاشات العدوّ.

في الثامن والعشرين من مارس/آذار، أي: اليوم الثالث للحرب، كان "شاهين بك" يُهرولُ من جبهة لجبهة، ويحاول أن يُضاعِف قوّةَ المقاومة، وكان العدوّ يهاجم بالمدافع والبندقيّات الآليّة، والحال يزدادُ خطورةً مع كلّ دقيقة تمرّ، وبدأ المتطوّعون في الانسحاب حين أدركوا أنّ الموت سيلاحقهم حتمًا لأنهم لا يملكون إلا البندقيّات لمواجهة القذائف المنهمرة من المدافع والرشاشات، ويبدو أن القتال مستحيلٌ في ظلّ هذه الظروف الصعبة، فلا يمكن التصدّي بالحراب لقذائف المدافع، وسقط معظمهم شهيدًا أو جريحًا، وانخفضت أعدادهم كثيرًا، وكانوا يقولون:

- الكفّار يمطروننا بوابل من النيران ولن نستطيع أن نثبت، فلننسحب يا "شاهين بك"".

لقد غاب توازن القوى بين الطرفين تمامًا إذ أن هؤلاء المقاتلين الصامدين الذين لا يتجاوز عددهم بضعة أنفارٍ لن يستطيعوا الصمود أمام جحافل العدوّ.

لكنّ "شاهين بك" رفض الانسحاب، وصرخ قائلًا:

- علينا أن نحارب حتى آخر رصاصة لدينا!

وزأرَ فيمن أشاروا بالانسحاب:

- بأيّ وجه أعود إلى عنتب لو عبر العدوّ من هنا؟ لقد وعدتهم، لن يمرّ العدوّ إلا على جثتي!

حفظ الله الوطن

لقد حارب ذلك البطل البارّ بوطنه قوّاتِ العدوّ التي تفوقه بكثيرٍ لمدّة ثلاثة أيّام ومعه نحو مائتين من الشجعان، وجشّم العدوَّ خسائر فادحةً، وبقي الفرنسيّون دَهِشين أمام هذه الحفنة من الأبطال، حيث لم يتمكّنوا من قطع مسافةٍ -بسبب هؤلاء الأبطال- تستغرقُ عشر ساعات إلا في أربعة أيامٍ مريرة.

تراجعت حفنة المتطوّعين إلى التلال، وكان شاهين بك يُقاوم وحدَه، فقد أصبح الآن جيشًا بمفرده، وكان يُقاوم الفرنسيّين بمفرده على جسر "ألملي" ببندقيّته، واستمرّ في إطلاق النار على العدوّ متحصّنًا بسياج الجسر الحجريّ، وكان رفاقه بالتلال يشاهدون دفاعه البطوليّ وعيونهم دامعةٌ.

بعد أن أطلق رصاصته الأخيرة، حطّم بندقيته ملقيًا إياها على الأرض، ثمّ أمسك خنجره بيده، وهو يسير على الجسر بأناةٍ مواجهًا العدوَّ بصدره المكشوف وصاح في وجههم قائلًا:

- لن تستطيعوا المرور إلا على جثتي!

كأنّه يريد أن يوقف الجيوش بقبضتيه، وصاح بكلماته الأخيرة للقادمين نحوه:

- حفظ الله الوطن!

صمتَ الضبّاط الفرنسيّون حائرين أمام هذا البطل المتهوّر المتقدّم نحوهم بمفرده على جسر "ألملي"، وزأرَ "شاهين بك" مرّةً أخرى.

- أيّها العدو الوضيع، هيّا، تعالَ، واطْعَنّي![١٤٦]

وفي لحظةٍ أُفرغت عشرات الرصاصات بجسدِ "شاهين بك"، وسقط جسدُ البطل على الأرض، لكنه قد بزغ في عنتب آلافٌ من أمثال "شاهين"، مزَّقَتْ فرقةُ المشاة الفرنسيّة بعشرات الضربات من الحراب جثمانَ ذلك الوطنيّ الشجاع، حيث كانوا يشفون غليلهم من جثّةِ "شاهين بك" الهامدة.

في الثامن والعشرين من مارس/آذار بَرَّ "شاهين بك" بوعدِهِ، ولم تستطع القوّات الفرنسية أن تمرّ إلا بعد أن وطِئَتْ جثّته الباسلة، ودُفن "شاهين بك" بمقابر ملك بـ "عنتب" ترثيه العيون الدامعة والقلوب المحترقة.

ولا تزال عنتب تروي بالدموع ملحمة ابنها البطل:

يَا شَهِيدَ الحَقِّ فِي ظِلِّ الحِرَابْ
عَنْتَبٌ مِنْ بَعْدِكُمْ تَصْلَى العَذَابْ
كَمْ تَغَطَّى الثّوبُ مِنْ فَيضِ الدِّمَاءْ
واصطلى الأبرارُ في نارِ البِغَاء
يا شهيدي قمْ وكبّر للنضال
واهزمِ الأعداءَ في ساحِ القتال

* * *

فِي الثَّلَاثِينَ ارْتَقَى تَحْتَ الرِّمَاحْ
فَوقَ جِسْرٍ قَدْ تَعَفَّتْهُ الرِّيَاحْ

(١٤٦) خلوصي يتكين، شهيد راية القومية في غازي عنتب، شاهين بك، غازي عنتب ١٩٧٠م.

سارعَ الأصحابُ يبكونَ العُقاب

عَنْتَبٌ من بَعدِكُم تَصلى العذاب

يَا شَهِيدِي قُمْ وَكَبِّرْ لِلنضال

واهْزِمِ الأعداءَ في ساحِ القِتَالِ

* * *

أَيُّهَا الشَّاهِينُ مَاذَا قد دهاكْ

قاومِ الآلامَ واثأرْ مِنْ عِداك

هلْ أعمَلُوا في جِسْمِكَ المفدِيّ أنواعَ النبالْ!

يَا شَهِيدِي قُمْ وَكَبِّرْ لِلْنضالْ

واهزِمِ الأعداءَ في ساحِ القِتَال

* * *

إنه المجاهد الذكيّ الباسل..

إنه مُشعل فتيل المقاومة ومُطلق أوّل رصاصةٍ على العدوّ الفرنسيّ أثناء احتلال الفرنسيّين لمدينة «مرعش».[١٤٧]

لقد أطلق أوّل شرارةٍ في حربِ الاستقلال، وفتح ببطولته الطريقَ لانتفاضة الأمّة كلّها..

لقد كان يتمتّع بقلبٍ فولاذيٍّ وحسٍّ وطنيٍّ عالٍ، ويكافح وينافح من أجل حماية الأرض والعرض والدين..

إنه البطل الشعبيّ «سونجو إمام».

(١٤٧) تقع محافظة مرعش في جنوب شرق تركيا واشتهرت أثناء النضال القومي بقهرمان مرعش أي بطل مرعش لمقاومة أهلها الاحتلال الفرنسي.